PSYCHOLOGY AND EDUCATION (2024) 61(9): 1406-1421
ISSN: 1553-6939

Contemporary hermeneutic reading and understanding of the Qur'anic text

- The Qur'anic phenomenon of Malek ben Nabi as a model -

Pr. Houda Amari[1*]
[1:] **M'hamed Bouguerra University**, **– Boumerdes –Algeria**, **ho.amari@univ-boumerdes.dz**

Received : 12/08/2024 ،Published :24/09/2024

ABSTRACT:

Contemporary Quranic studies take their source from the Qur'an in search of its words, methods, structure and miracles, and due to the specificity of the Qur'anic text, as it is a miraculous text whose divine source is his sanctity, it transcends critical approaches to approaches, but research in its interpretation It is still ongoing, and the evidence for this is the volume of research, academic studies and contemporary hermeneutical readings, including what was presented by the Algerian thinker Malek Bennabi in his book The Qur'anic Phenomenon of the Analysis of Phenomena Related to the Qur'anic Text Accordingly, this study aims to show the approach followed by Malek ben Nabi in dealing with the Qur'anic text, and to identify the elements of his hermeneutical approach to understanding the Qur'anic text, and to answer that, we pose the following problem: What approach did Malek ben Nabi adopt in his view of the issues related to the Qur'anic text in order to clarify its miraculous nature?

Keywords:
Quranic text - critical approach - miracles of the Qur'an - Quranic phenomenon - interpretive approach.

القراءة التأويلية المعاصرة وفهم النّص القرآني

– الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي أنموذجا–

أد. هدى عماري [1*]
[1:] جامعة أمحمد بوقرة – بومرداس– (الجزائر) **ho.amari@univ-boumerdes.dz**

الملخص:

تأخذ الدراسات القرآنية المعاصرة مصدرها من القرآن الكريم بحثا في ألفاظه وأساليبه وبنيته وإعجازه، ونظرًا لخصوصية النّص القرآنيّ إذ هو نص إعجازي مصدره إلهي له قدسته فإنّه يتعالى عن المقاربات المناهج النّقديّة، إلا أنّ باب الاجتهاد في تفسيره وتأويله لا تزال مستمرة ودليل ذلك حجم البحوث والدراسات الأكاديمية والقراءات التأويلية المعاصرة، من ذلك ما قدمه المفكر الجزائري مالك بن نبي في كتابه الظاهرة القرآنية من تحليل ظواهر متعلقة بالنّص القرآني، وعليه تهدف هذه الدراسة إلى تبيين المنهج الذي اتّبعه مالك بن نبي في تعامله مع النّصّ القرآني، وتحديد مقومات مقاربته التأويلية لفهم النّص القرآنيّ، وللإجابة عن ذلك نطرح الإشكالية الآتية: ما المقاربة التي اعتمدها مالك بن نبي في نظرته للمسائل المرتبطة بالنّص القرآني في سبيل بيان طبيعته الإعجازية؟

الكلمات المفتاحية:

النّص القرآني، المنهج النقدي، اعجاز القرآن، الظاهرة القرآنية، المقاربة التأويلية.

على سبيل الاستهلال:

سيظل النّص القرآني محل اهتمام العلماء المفسرين والباحثين في ميادين الدراسات القرآنيّة على امتداد التاريخ، فقد برز في الساحة النقدية المعاصرة تيار تأويلي يسعى إلى طرح قراءات مختلفة عمّا عرضه المتقدمون في علوم

التفسير، ومرد ذلك إلى السبيل الذي سلكته المناهج النقدية الحديثة في تسليم سلطة النّص إلى يد القارئ وحثه على دخول حرم النّص الديني بقراءة متحررة من ضوابط التفسير. تسعى إلى تأكيد القول بالتأويل وانفتاح الخطاب على تعدد القراءات. ومن الواضح أن ملامسة هذا التوجه جاء استجابة لاستعارة مفهوم الهيرمونيطيقا الذي نشأ في رحاب الدرس الديني اليهودي والمسحي وعلى رغم من أنّ هذا المصطلح ظهر وتطور في الفكر الغربيّ إلا أنّ دراسات حديثة قامت بتقريبه من المجال التداولي العربي الإسلاميّ من خلال تطبيقه على النّص القرآني، بهدف إبراز علاقة هذا النّص بالواقع وإظهار أبعاده الاجتماعيّة والإنسانيّة.

تروم هذه الورقة البحثية تسليط الضوء على آليات التأويل للنّص القرآني عند واحد من أهم رجالات الفكر الحديث **مالك بن نبي** الّذي وزع نشاطه الفكري على حقول معرفية شتّى التاريخ والحضارة وعلم الاجتماع والاقتصاد والخطاب الديني حيث أسهم في بلورة نظرة متجددة في تفسير الظاهرة القرآنية على أساس يُقنع العقل وذلك بتقديم فرضيات معرفية منطقية خارجة عن إطار المعرفة السائدة؛ تدعمها قراءة تأويلية تساءل المخبوء في الخطاب الأصلي.

ومن هنا كانت الإشكالية الرئيسة لهذا البحث تتمحور حول التساؤل التالي: ما هي تجليّات النظرية التأويلية التي تبناها مالك بن نبي مؤلفه الظاهرة القرآنيّة؟ ونتوسل الإجابة عنه من خلال طرح المحاور الرئيسة الآتية:

المحور الأول: مهاد نظري في مفهوم التأويل ومبادئه وشروطه.

المحور الثاني: النّص القرآني وإشكالية التأويل.

المحور الثالث: آليات التأويل ومنهجه في مؤلف الظاهرة القرآنيّة.

1- في مفهوم التأويل

ارتبط مفهوم التأويل في المنظومة النقديّة الغربيّة القديمة بالخطاب الدينيّ و للحديث عن التأويل بوصفه منهجا لفهم النّصوص وتحليلها لابد من إعادته إلى إطاره الفلسفي الّذي نحسبه المنشأ الأصلي للنظريات المنهاجية الّتي تروم مقاربة النّص، تشير الدراسات أنّ لفظة التأويل hemenutics مشتقة من الكلمة اليونانية hemenuticos والتّي تعني القدرة على التفسير، وقد ارتبط استخدامه بالكتاب المقدس. فهو" مصطلح لاهوتي كان يدل في نشأته الأولى على ذلك النظام المعرفي الّذي يحكم من خلال مجموعة من القواعد عملية تفسير الكتاب المقدس أو النّصوص الدينيّة الّتي قد تتطلب فهماً وتفسيراً بسبب غموض معناها الّذي نشعر إزاءه بالاغتراب." [1] ؛ إذ أنّ القارئ للنّصوص الدينيّة من الكتب المقدسة كان يجد غموضا في التماس المضامين وفهم دلالاتها، فجاءت المقاربات التأويلية تحاول القبض على كينونة المعنى وترسيخها في الأذهان.

وبالرجوع إلى المعاجم اللّغوية القديمة نلفي التأويل جاء بمعنى؛ " أوَّل الرجوع وأوَّل الكلام و تأوَّله دبَّره فسّره والمراد بالتأويل نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما تُرك ظاهر اللفظ " [2] ؛ فالتأويل بهذه الصيغة حدّ فاصل بين ظاهر الكلام وباطنه، وانتقال من المكتوب إلى المسكوت عنه بأدوات تحليلية وآليات تفسيرية يضعها " المحلل المتفاعل مع محيطه والمتعمد على تجربته الثقافيّة وكفايته الفطرية والتخييلية "[3] كما يشير أبو هلال العسكري إلى أنّ التأويل يحمل دلالة " الإخبار بغرض المتكلم بكلام وقبل التأويل استخراج معنى الكلام لا على ظاهره بل

على وجه يحتمل مجازا أو حقيقة ومنه يقال تأويل المتشابه "[4] ويذهب السيوطي في مؤلفه الإتقان في علوم القرآن إلى أنّ التأويل جاء في أصله " من الأول وهو الرجوع فكأنه صرف الآية إلى ما تحتمله من المعاني، وقيل الإبانة وهي السياسة، كأن المؤول للكلام ساس الكلام ووضع المعنى فيه موضعه " [5]

وممّا لا شك فيه أنّ مبحث التأويل قد نال اهتماما بالغا في الفكر الإسلامي قديما، ولا يسعنا المقام هنا التوسع في عرضها إلاَّ التأكيد أنَّ للعلماء المفسرين تجارب متميزة في قراءاتهم التأويلية التي قامت أساسا في أحضان الدين غايتها النفاذ في تجاويف النّص ودرء الغموض عنه واستجلاء الإبهام بغية ملامسة الحقيقة

ولم تختلف الدراسات النقديّة المعاصرة في تعريف التأويل، إذ تراه يدل على معنى الرجوع إلى الأصل، فهو بحسب نصر أبو زيد " ظاهرة إمّا باتجاه الأصل أو في اتجاه الغاية والعاقبة بالرعاية والسياسة ولكن هذه الحركة ليست مادية بل هي حركة ذهنية عقلية في إدراك الظواهر"[6] وهو في الاصطلاح الفلسفي " لا صلة له بالنّص الأدبيّ، وإنَّما هو من مصطلحات الفلسفة وأدواتها المتخذة لتأويل النُّصوص الدّينيّة والفلسفيّة بعامَّة، ونصوص التوراة بخاصة، حتّى قيل: التَّأويل المقدس، ثمّ توسع في استعمال هذا المفهوم الفلسفي، فأمسى يطبق على كل تأويل رمزي " [7] يعتبر النّص بنية رمزيّة منفتحة على تعددية دلالية يستطيع المؤول أن يكشف عن سلسلة من التأويلات اللامتناهية.

وما نستشفه تقاطع بين ما قدمته المدونات النقدية العربيّة المعاصرة في حديثها لماهية هرمينوطيقا مع ما وصلت إليه أطروحات النقاد والفلاسفة في الغرب بفعل التأثر الواضح، نجد أن الناقد الألماني شلايرماخير ركز بحثه على توسيع نطاق اهتمام هرمينوطيقا من تحليل وتبسيط النّصوص المقدسة إلى العناية بالنّصوص الأدبيّة ومختلف الخطابات الرمزيّة ويذهب هايدغر في كتابه الأنطولوجيا، هرمينوطيقا الواقعانية إلى أنّ التأويل هو التبيين و تجلية وانكشاف [8] ولا يمكن أن نتصور قيام عملية تأويلية من دون خبرة المؤول في استجلاء المعاني من اللغة باعتبارها محايثا لتجربة الكتابة ، فكل إنسان في نظر هايدغر " كائن مؤول، تصله خيوط التواصل بالتراث ليس عبر النّص المكتوب فقط، بل عبر الذاكرة أيضا " [9]

وفي جانب آخر يتناول بول ريكور علم التأويل على أساس أنّه " عمل الفكر الذي يتكون من فك المعنى المختبئ في المعنى الظاهر، ويقوم على نشر مستويات المعنى المنضوية في المعنى الحرفي" [10]. وبالتالي فإن التأويل ينشأ في حالة تعددية المعنى من خلال اللغة التي تتجلى في صور عديدة إشارات، علامات، رموز، نصوص...

واسترسالا في مفهوم التأويلية يلاحظ أن التأويل يتداخل مع التفسير؛ فالمفهوم السائد عند أغلب فقهاء الإسلام أنّ التفسير مرادف للتأويل؛ فقد " طابقوا في أحيان كثيرة بينهما، أمَّا الاختلاف الّذي ألّح عليه بعضهم فهو اختلاف تنوع أو لاختلاف تضاد "[11] فالتمايز بين المصطلحين يتجلى في ارتباطهما بصراع التيارات الدينية واختلافها في فهم النّصوص في ظل التعددية الدلاليّة، فاتخذ التفسير أوجه عديدة نقلي، عقلي، تحليلي، لغوي.. وجاءت العملية التفسيريّة لتشمل كلّ العلوم الممهدة للتأويل، ومن ثمّة يكون التفسير جزءا من التأويل وتكون العلاقة بينهما علاقة العام بالخاص، أو علاقة النقل بالاجتهاد من جهة أخرى " [12] ليدخل التأويل بعدها في دائرة أعم وأشمل، إذ يعد حالة من حالات الفهم، حين يطبّق على تعبيرات الحياة المكتوبة، يمكن توقّع أن يظهر التأويل بوصفه مجرد مقاطعة ملحقة بإمبراطورية الاستيعاب أو الفهم" [13]

نستنتج ممّا ذكر أنّ التأويل يأتي بمعانٍ محتملة فهو يعني " مجموع الخطوات التي تقود إلى المطابقة بين رغبة المؤول وممكنات النّص الدَّالة، وهنا يمكن التأصيل بإرجاع المعنى إلى أصله يتم عبر الاعتراف ضمنا بتعدد المعاني الأصلية والمشتقة وكذا احتماليتها " [14]

فغاية القراءة التأويليّة النفاذ إلى أعماق النّص باعتباره عالما مكتفيا بذاته يكتسيه الشّك والاحتمال يمارس المؤول عليه سلطة التجلية وتبديد العتامة في الفهم وحلّ الشفرات وفك الرموز التي تحمل معان أوليّة وأخرى ثانويّة والقارئ المؤول لا يرى إلا " الدلالة الثانوية عن طريق الدلالة الأولية، حيث تكون هذه الدلالة الثانوية الوسيلة الوحيدة للدنو من فائض المعنى، والدلالة الأولية هي التي تعطي الدلالة الثانوية بصفتها معنى المعنى" [15] وعليه؛ فإنّ التأويل تجربة فهم منفتحة على احتمالات المعاني التي يحملها اللفظ، تتوسل التوضيح والتفسير بالاشتغال على الآليات استدلالية و استثمار القرائن اللّغويّة والصور الذهنية الّتي تساعد الناقد المؤول على ضبط حدود عملية التأويل.

2-نظرية التأويل وسلطة النّص القرآني

يعد النّص القرآنيّ جوهر الإسلام ومصدر تشريعه، وأصل العلوم والأحكام والمعاملات ومحل الإعجاز وأساس البلاغة والبيان، لهذا فإنّ " عمومية التأويل تأخذ مشروعيّة أكبر إن قيام التأويل على المعنى في اختصاصه يجعله منهج التواصل " [16] فيسخر المؤول كلّ الإمكانات المتاحة وآليات البرهنة للبحث عن الدلالات المجازية والتمثيلية المتوارية خلف جماليات البلاغة وسحر البيان.

قد يعتقد البعض أنّ القرآن الكريم قد نال حقه من تفسير العلماء حتى استغلق علم التفسير وباب التأويل، وما على المفكرين المحدثين إلاّ الاكتفاء بها لما استوفته تلك المدونات القيمة من تفسير آياته و إدراك معانيه، ولا مجال للاشتغال بقضية التأويل، غير أنّ الحقيقة عكس هذا تحظى قضية التأويل وعلاقتها بالنّص باهتمام الباحثين والدارسين في الفكر المعاصر، نظرا لأهميتها في تقديم قراءات متباينة في في وقت تزايد فيه صراع المذاهب وصل حدّ التعارض واحتدم الجدل بين الأفكار بلغ درجة الانشطار، فما كان إلا أن قامت مقاربات تأويلية تحلل النّص بحسب مرجعياتها متفادية بذلك أحادية القراءة الّتي تحجب الكثير من الدلالات المسكوت عنها.

وتحسن الإشارة هنا إلى أنّ الدراسات القرآنيّة المعاصرة أخذت تستعين بالنظرية التأويلية وما قامت عليه هريمنوطيقا الغربيّة من مبادئ وما وصلت إليه من آليات خاصة بعد تحول تطبيقات هرمينوطيقا من حقل الخطابات الدينيّة إلى رحاب النقد الأدبي، مستفيدة من الرؤى الفلسفية وومضات الفكر المعاصر. كما أنَّ القراءات التأويلية المعاصرة أرست أسس جديدة لفهم النّص الديني مسترشدة بالتطور الذي مس العلوم الاجتماعيّة وقدمت تصورات منتقاة من انفتاحها على الكشوفات في العلوم الإنسانيَّة على نحو لسانيات دوسوسير، وتفكيكية جاك دريدا، وفنومينولوجيا هوسرل، هذا الانفتاح الموصول بين العلوم يكتسي أهمية في عرض تصور نقدي تأويلي يفتح النّص على آفاق القراءة تساير مستجدات العصر.

تطالعنا المدونات النقدية الحديثة على اتجاهات متباينة اهتمت بمدارسة النّص القرآني وفق منظور حداثي، فقد انتقلت أفكار من النقد التأويلي الغربي ووجدت أرضية خصبة في الساحة النقدية العربيّة تلقفتها نقاد ومفكرين حملوا لواء التجديد واقتنعوا بضرورة تجاوز الدراسات القرآنيّة الكلاسيكية ودعوا في المقابل إلى إقامة قراءات تأويلية ترتكز على مبدأ

الاستقلال الدلالي ومقاربة النّص القرآني برؤية علمانية تنويرية متمردة على الموروث العربي الإسلامي، وإطلاق العنان لحرية التأويل حتى بلغ الأمر الإدعاء أنّ النص القرآني نص لغوي مفتوح على جميع التأويلات.

ويمكننا أن نلتمس إستراتيجية الممارسة التأويليّة المعاصرة للنّص القرآني عند بعض العلماء المفكرين الذين فتحوا باب الاجتهاد في البحث الديني، من ذلك ما قدمه محمد أركون (1928–2010) في مؤلفه "الفكر الإسلامي نقد واجتهاد والذي خصصه للحديث عن تدوين القرآن وتفسيره، كما عرض مشروعه الحداثي المبني على مبدأ عقلاني وهذا ما نستشفه من كتابه الفكر الإسلامي قراءة علميّة؛ إذ انتقد فيه العقل الإسلامي التراثي ودعا إلى تحريره من النقد التقليدي للخطاب الديني وتجاوزه إلى قراءة تخاطب العقل والمنطق متأثرا في ذلك بما قدمته التفكيكية في توجيه رؤيته نحو تقويض المنظومة المعرفية وإعادة بنائها وفق رؤية حداثية تتجاوز التصور الكلاسيكي لفهم النّصوص، وبالتالي يعيد طرح الظواهر القرآنيّة التي حاولت المؤسسة الدينية تثبيتها والتخلص من نظامها الفكري القديم [17] ولا مجال في نظره للتراجع عن مساءلة القضايا التي بقيت بعيدة عن مجال التفكير، ذلك أنّ الفكر في المجتمعات التي يهيمن عليها الدين الإسلامي يجد نفسه معرقلا جدا من قبل اللامفكر فيه أو المستحيل التفكير فيه والمتراكم منذ القرن السادس عشر [18] ودعت مستجدات العصر وضرورات المجتمع إلى وضعها على طاولة البحث العلمي الممنهج.

وينصرف حسن حنفي (1935–) إلى تأسيس مشروعه النقدي " التراث والتجديد" و" من العقيدة إلى الثورة " إلى التعامل مع النّص القرآني مثل باقي النّصوص البشرية، وأن تأويله قد " يتغير حسب الأحوال النفسية للقارئ الواحد، وحسب الفروق بين الأفراد وتبعاً للبيئات الثقافية والحضارات والعصور. وقد يأخذ النص الواحد معاني مختلفة طبقاً لمراحل العمر الواحد، وطبقاً للتجارب المكتسبة حتى ليبدو النص مساوقاً وتابعاً لتطور الفرد في مراحل عمره، وكأن أعماق الشعور تطابق تطابقاً موضوعياً مستويات النص." كما يدعو إلى نقد التراث وإعادة النظر في الموروث الثقافي والديني والفكري العربي الإسلامي بعيدا عن الاحتفالية واجترار آراء السلف وإنّما التجديد المؤسس على العلمية والموضوعيّة.

كما يتجه نصر حامد أبو زيد (1943–2010) عبر مؤلفاته " مفهوم النّص دراسة في علوم القرآن، النّص والسلطة والحقيقة، نقد الخطاب الديني إشكالية القراءة وآليات التأويل" إلى بسط مبادئ القراءة التأويلية المشفوعة بمقولات المنهج التاريخي، والتي يراها كفيلة بتفسير النّص الديني الذي يراه " المولد لكلّ أو لمعظم أنماط النّصوص الّتي تختزلها الذاكرة الثقافة " [19]

ويذهب إلى تأكيد ضرورة عقلنة القراءة التأويلية وهذا يقتضي من المؤول الاستناد إلى المنطق والحجج العقليّة بهدف إضفاء صفة المشروعيّة على عملية الفهم و التبسيط، من المؤكد أنّ اعتماد المرجعية العقلية ليست وليدة العصر الحديث نتيجة التأثر بالمناهج الغربيّة وتقليدها، إنّما نجد لها حضورا في تاريخ الفكر الإسلاميّ والذي يقدم المعتزلة على أنّهم " صبوا تأويلهم على كلّ ما يمس الوجود والفعل الإلاهين لتأكيد محدودية الرؤية التفسيرية التي تسقط بالرغم منها في التشبيه. هكذا وجد المعتزلة أنفسهم. وهم يسعون إلى إثبات عقلي لانسجام التصور الإسلاميّ يقيمون تصورا نسقيا متناغما لقضاياه، ويؤسسون بالمقابل مبادئ أوليّة لنظرية التأويل الإسلامي" [20]

وقد سارت القراءات المعاصرة للنّص القرآني في اتجاه ذاته فأعطت العقل السلطة المطلقة في تفسير آيات القرآن الكريم وتوسلت أدوات نقديّة منتقاة من نظريات فلسفية في تأويل ما استصعب فهمه خاصة ما تعلق بالظواهر الغيبية مثلما هو

الحال مع تفسير كيفية الوحي بوصفه مصدرا للمعرفة. لهذا فقد واجهت مثل هذه الدراسات انتقادات كثيرة لعلّ أهمها أنَّها انحرفت عن الضوابط العلميّة عندما تنكرت للمدونات التفسيريّة التراثيّة، كما أنّ انبهار أصحابها بالمناهج النقدية الحديثة والمبالغة في تطبيقها حد الشطط وهي مبطنة بأفكار أيديولوجية مؤسسة على خلفية سياسية غربية التوجه غايتها تعرية القداسة عن النّص القرآني أسقطها في شراك الشك غير المؤسس موضوعيا.

وبالرجوع زمنيا إلى الدراسات القرآنيّة السابقة للدراسات الحداثية نلفي مقاربات تروم تفسير النّص القرآني وتأويل الخطاب الديني يمكننا تصنيف أصحابها في الاتجاه الإصلاحي الّذي رفض التفسيرات الكلاسيكية الّتي تغرق في مسائل كلامية وتبعد القارئ عن الفهم السليم للنّص القرآني، نجدها تسعى إلى الربط بين الفكر الإرشادي التنويري وتفسير القرآن بما يخدم الرؤية الإصلاحيّة؛ كما هو شأن في " تفسير المنار" للإمام محمد عبده (ت 1905)، والذي جمع فيه بين رؤية تأويلية منفتحة وإيضاح فنون البلاغة وقواعد النحو والصرف والاستفادة من علوم العصر دون أن ننسى العلماء المصلحين الذين قدموا تفاسير وفق توجه إصلاحي من ذلك تفسير ابن باديس (ت 1940) وتفسير الطاهر بن عاشور (ت1973) والتي استمدت بعضا من مقوماتها من الكتب والتفاسير التراثيّة وتنقيح بعض آراءها كما نجد أنّ السيد قطب في ظلال القرآن والذي ركز في تفسيره على انعكاس القرآن على نفسيّة القارئ رابطا ذلك معطيات الواقع. نخلص إلى أنّ التوجه الإصلاحي قدم وجهات تأويلية مختلفة للنّص القرآنيّ، وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل عن الرؤية النقدية والإطار المنهجي الذي ارتضاه مالك بن نبي في تأويله للظاهرة القرآنيّة.

3-تأويل النّص القرآني عند مالك بن نبي

يعد مفكر وفيلسوف جزائري مالك لن نبي (1930-1973) من أعلام النهضة وحركة الإصلاح التي عرفها العالم العربي مطلع القرن العشرين وكان لها امتدادها في جزائر، اشتهر بإنتاجه الفكري الغزير، فقد ألف سلسلة كتب تحت عنوان مشكلات الحضارة نذكر منها **الظاهرة القرآنية**، **شروط النهضة**، وجهة العالم الإسلامي ، الفكرة الإفريقية الآسيوية، مشكلة الثقافة، الصراع الفكري في البلاد المستعمَرة ، تأملات، آفاق جزائرية، القضايا الكبرى، مذكرات شاهد للقرن في جزئين، الإسلام والديمقراطية، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، عالم الاقتصاد، ميلاد مجتمع، مشكلة الثقافة، الظاهرة القرآنيّة – محل الدراسة- وغيرها من المؤلفات .

حري بنا في مستهل هذا المبحث التأكيد أنّ الدراسة المعمقة للنّص القرآني لم تكن في مقدمة اهتمامات مالك بن نبي وإن عرف بتوجهه الإصلاحي إلاّ أنّ عنايته بمشروعه الحضاري ومعالجة إشكالات فكرية كانت الأبرز، وما يلاحظ أن تخصصه العلمي مهندس كهرباء لم يمنعه من اقتحام عالم التأليف في الفكر الإسلامي والاقتصاد والاهتمام بقضايا الإنسان وثقافته... كما أن تكوينه التعليمي المزدوج بين تشبعه بالثقافة العربية الإسلامية وحفظه لكتاب الله واطلاعه على التراث الإسلامي المتعلق بالخطاب القرآني من جهة، وثقافته الغربيّة التي كوَّنها من تعليمه الفرنسي وقراءاته المتنوعة لما أنتجه الفكر الغربي مكنه من مساءلة أفكار غيبية وإعادة النظر في الظواهر القرآنيَّة مثل ظاهرة الوحي، واثبات النبوة، علاقة القرآن بالكتاب المقدس، المجاز القرآنيّ.. وغيرها من الموضوعات انطلاقا من مكتسبات التطور العلمي الذي عرفه الفكر الغربي.

اجتهد المفكر مالك بن نبي لإرساء العقيدة عن طريق التأويل العقلاني للقضايا الدينية والعقائدية في كتاب الظاهرة القرآنية بحث في دلائل إثبات النبوة، وصدق دليل الوحي وتأكيد أنّ القرآن تنزيل من عند الله وهذا أقرب أن يكون بابا في علم التوحيد، أمّا مسألة إعجاز القرآن فبقيت خارج اهتمام مالك بن نبي في مؤلفه الظاهرة القرآنية و أن كان الناقد محمود شاكر قد أبانها وتعرض لبعض جوانبها في مقدمة .

فقد أشار محمد شاكر في تقديمه إلى منهج الذي سلكه مالك بن نبي في تأليف الظاهرة القرآنيّة بقوله " فهو يستمد أصوله من تأمل طويل في طبيعة النّفس الإنسانيّة، وفي غريزة التدين في فطرة البشر، وفي تاريخ المذاهب والعقائد التي توسم بالتناقض أحيانا، ثمّ هو يستمد أصوله من الفحص الدائب في تاريخ النبوة وخصائصها ثم في سيرة رسول الله " [21] يستشعر القارئ أنّ مالك بن نبي وضع يده على المحنة التي يعانيها الشباب المسلم في عصرنا من صعوبات في إدراك أوجه الإعجاز وتحديد مواطنه.

فجاءت الظاهرة القرآنيّة لتحقق الأهداف التي سطرها بن نبي والمنضوية تحت دراساته في أصول الفكر الإسلامي ورغبته في تجديد أطروحاته، وتوسيع آفاقه ليستوعب معطيات الواقع، وبخاصة أنه تزامن وازدهار حركة الاستشراق وانتشار لهيب الحملات المسعورة التي شنها المستشرقون على الدّين الإسلاميّ وتّشكيكهم في التنزيل الكريم الأمر الذي دفع مالك بن نبي وغيره من العلماء المفكرين المشتغلين بحقل الدراسات القرآنيّة إلى الرد على تلك الإدعاءات وتفنيد تلك الأكاذيب بالحجة المنطقيّة وتأويل العقلي.

ونعتقد أنّ الإلحاح على مواجهة هذا التيار الاستشراقي المشكك في مسلمات العقيدة الإسلامية ازداد عند مالك بن نبي حينما بالغ بعض الأدباء والمفكرين العرب حدّ الشطط في تطبيقهم للمناهج الغربية متأثرين بأفكار المستشرقين تحت مسميات الانفتاح ممّا أوقعنا حسب مالك بن نبي في محنة العقل الحديث في العالم الإسلامي، ويوضح أنّ " الأعمال الأدبيّة للمستشرقين قد بلغت في الواقع درجة خطيرة من الإشعاع لا نكاد نتصورها، وعن هذا الطريق أوغل الاستشراق في الحياة العقليّة في البلاد الإسلاميّة. [22]

ويضرب مثالا عن تلك الأزمة الثقافيّة العربيّة الخطيرة والمعارك الأدبيّة المدوية التي شهدها العصر الحديث بما حدث بين العلمين زكي مبارك ممثلا للتيار المحافظ وطه حسين المتأثر بمصادر الكتابات الغربيّة ومناهجها العلميّة. فقد استعان هذا الأخير بآراء مرجليوث المشككة في رواية الشّعر الجاهليّ وصحته رغبة منه في الضرب بإعجاز القرآن حتى أنّه " يخيل إلينا أنّ مرجليوث أراد بفرضه أن يفرض على المشكلة تطوراً ثورياً حين أدخل في الوقت المناسب ما يشبه الديناميت الذي ينسف كل مناهج التفسير القديم." [23]

ومع ذلك لا ينفي بن نبيّ القيمة العلمية للمنهج الوضعي الديكارتي لو اقتصر الاستشراق على المواضيع ذات الطابع العلمي الصرف، ولكن ما وإن تجاوزته للدراسات الإسلامية فقد حادت عن جادة الصواب. فقد فضل تقييم آراء المستشرقين بحيادية بحيث أنّه لا ينفي جهودهم في مقاربة الظواهر الدينية، ولا يتجاهل استفادتهم من معارف العلوم الإنسانيّة وخبرات مناهجها، فهو في نظره " إنتاج لا يجوز نكران قيمته العلميّة " [24] ولكنه يقف منتقدا لمكتسبات القراءة الاستشراقية للتراث الإسلامي بصفة عامّة والخطاب الديني بصفة خاصة والمرتبطة بأهداف إيديولوجيّة المضمرة تحت أسطر تلك المقاربات

تسعى إلى تمرير أفكار سلبية تشوش ذهن القارئ في إدراكه لظاهرة الوحي وتؤثر على الفهم الحقيقي للنّص القرآني، وتستغل آلية التأويل في نشر عقائد فاسدة وتحقيق مآرب خبيثة تعارض أحكام الدين و أسس العقيدة التوحيد.

وعليه، يذهب بن نبيّ إلى البحث في الموروث الأدبيّ والديني للكشف عن جوهره وحقيقته وبالتالي" يحقق هدفا مزدوجا " فهو يتيح للشباب المسلم فرصة التأمل الناضج في الدّين، ويقترح إصلاحاً مناسباً للمنهج القديم في تفسير القرآن "[25]

4- المنطلقات الفكرية للمقاربة التأويلية عند مالك بن نبي

إنّ التوجه الفكري لمالك بن نبي يتقاطع مع أفكاره الإصلاحية الهادفة إلى تنوير العقل وتحريره، وبحثه في الظاهرة القرآنيّة يمكن عده لبنة أساسيّة في مشروعه الفكري العام مشكلات الحضارة، محاولة منه الوصول بالفكر الإسلامي إلى مرحلة تفسير النّص القرآني تفسيرا عقليا يقبله المنطق فالفلسفة التي يرتكز عليها هذا اللاهوت هي فلسفة فعل وثورة تروم الإصلاح والتغيير والتحرير الإنسانيّ الشامل باسم الدين، أيّ باسم الوحي الذي يمثل إرادة الله " [26]

إنّ فهم تفكيرنا العربي الإسلامي المعاصر وكشف عوائقه الابستمولوجية يبدأ من فهم أرضيته التراثية الضخمة المشكلة بفعل قراءات متعددة عبر السنين للنّص القرآني المشكل للحضارة العربيّة الإسلاميّة، وهذا فهم جديد يعتمد منهجيات معاصرة تتحول على يد بعض الكتاب العرب أحيانا إلى ميكانيكية تقتل القراءة في حدّ ذاتها" [27] ويبدو أنّ مالك بن نبي تفطن لخطورة التطبيق الحرفي للقراءات التأويلية الغربيّة على النّصوص التراثية العربيّة كما أن الأمر يزداد صعوبة عند محاولة فهم النّص القرآني بآليات إجرائية من مناهج غربية المنشأ، لهذا فإنّه لا يرفض ما قدمته التفاسير والمدونات التراثيّة جملة وتفصيلا بل لا مناص من تطوير ما وصل عليه العلماء قديما في تأويل مشكل القرآن الكريم، وفي الوقت نفسه الانفتاح على الحقول المعرفية وأدوات فهمها للظاهرة القرآنية من غير المساس بقدسيتها وذلك لمواكبة مستجدات العصر وتطورات السريعة التي طرأت على قيم المجتمع وتركيبته تحتاج من القارئ الباحث أنّ يتسلح بآليات نقدية معاصرة لفهم النّص الديني دون إغفال قيمة القراءة التأويلية التي " تسمح بالتقاط المعنى غير المباشر عن طريق المعنى المباشر. [28]

يذكر مالك بن نبي في أكثر من موضع أنّه لا يسعى إلى معارضة الدراسات القرآنيّة التراثيّة التي قدمت وجوها للإعجاز القرآني وساهمت مساهمة بالغة في تفسيره وذلك أنه لا يلغي جهود علماء الإعجاز ولا ينتقص قيمة أعمالهم كما أنه لا يرفض محاولاتهم الاجتهادية في باب التأويل والتفسير من أمثال الجاحظ في مؤلفه نظم القرآن وعبد القاهر الجرجاني صاحب دلائل الإعجاز، وإنَّما يفند القراءات الكلاسيكيّة التي تجانب توظيف العقل حجة وتبقى عاجزة عن وضع النّص الديني في سياقه التاريخي والثقافي والاجتماعيّ ذلك أن قراءة بن نبي التأويلية تهدف إلى مراعاة علاقات النّص القرآني بسياقه الاجتماعي وكشف العلاقة بين سماته اللّغوية والتطور الذي عرفته العربيّة " فاللغة الجاهليّة التي سيطويها القرآن بعبقريته الخاصة وينقلها إلى لغة منظمة فنياً حتّى تعبر عن فكرة الثقافة الجديدة والحضارة الوليدة "[29]

فقد ظلّت التفسيرات القديمة للنّص القرآني مخلصة لإيديولوجيات أصحابها، دعت الحاجة ومستجدات العصر إلى إعادة فهمه بآليات جديدة ذلك أن تأويله نشاط معرفي تقتضيه ضرورات إنسانيّة وسلطات سياسية وعقائدية وقيم اجتماعيّة، وجب على الناقد المؤول أن يستحضر المتغيرات الطارئة المؤثرة في تأويلاته، كما يلزمه أن يساءل النّص بعيدا عن إقحام

النزوات الذاتيّة في العملية التأويليّة، ويستحضر العوامل النفسيّة والظروف التّاريخيّة المحيطة بالنّص " الذي يتم النظر إليه بوصفه بناء رمزيا، ويتم النظر في القارئ وممارسته التأويليّة كظرف حاضر في بناء المعنى النّصي " [30]

5-آليات تأويل الظاهرة القرآنيّة

يأتي مشروع التأويل وتعدد اتجاهاته ليضع حدا للقراءة الواحدة التي تحاول تسييج النّص والتوهم بأنها تحيط بحقيقة النّص وتحاصر كينونة المعنى، ذلك أنّ النّص ينتج قراءات لا نهائية ترتبط بالأساس بنمط البنية المشكلة له من جهة، ومقصدية المؤول وطبيعة اتجاهه الفكري والإيديولوجي الذي يحدد شكل القراءة التأويلية من جهة أخرى. ومع ذلك فإن ثلة من النقاد الباحثين في التأويل ونظرية التلقي أكدوا أنّ حرية المؤول قد تقوده إلى إصدار أحكام تحيد بالعملية التأويليّة عن نصابها، فكان من الضروري إخضاع التأويل لشروط وضوابط .

ونحسب أنّ التطور الّذي عرفته المناهج الاجتماعيّة والعلوم الإنسانيّة ساعد على ازدهار القراءات التأويلية، فالانفتاح على معطيات المناهج النقدية جعل مالك بن نبي يعتمد في طرحه على استراتيجيات تأويلية في إعادة قراءة التراث الديني برؤية مغايرة تعطي أولوية لتحليل المنطقي وتفتح القراءة التأويلية على آفاق متعددة كانت الزاوية التّاريخيّة في مقدمتها لفهم الدلالات " فلا يمكن إدراك حاضر النّص إلا انطلاقا من الماضي بوصفه امتدادا حيّا له، كما لا يمكن إدراك هذا الأخير إلا انطلاقا من موقعنا الجزئي في الحاضر. ويتحقق فعل الفهم انطلاقا من دمج الآفاق؛ أفق القارئ الخاص المحمّل بالفرضيات وأفق النّص" [31]

تتنوع الآليات التي يعتمدها المفكرون والباحثون في الدراسات القرآنيّة، إنّ قدسيَّة النَّص لم تمنعهم من مقاربته بأدوات التحليل البنيوي وآليات المنهج التاريخيّ، فكثيرا ما جاءت تصوراتهم بوقائع الأحداث والسّياق الّذي نزلت فيه السور المكيّة والمدنية ، وقد ذهب بعض النقاد إلى التأكيد أنّ أهمية حضور النظرة التاريخية فمثلا " لم يتحرج حسن حنفي من إدراج القرآن ضمن الكتب المقدسة التي ينبغي إخضاعها لمناهج النقد التاريخي" [32] الهذا نلفي مالك بن نبي يدعم رؤيته التأويليّة للظاهرة القرآنيّة بآليات المنهج التاريخيّ، ففي اعتقاد مالك بن نبيّ يجب أن نحدد الإعجاز في القرآن بالنظر إلى مفهومه في الأديان الأخرى؛ إذ " أنّ إدراك المسلم للقرآن بوصفه كتاباً منزلاً على وجه الخصوص لا يمكن فصل هذه الأسباب عن تاريخ الأديان السماوية بصورة عامّة " [33] ويستدل على ذلك بقول الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله " ما من نبي إلا وأوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنّما كان الذي أوتيته وحيا أوحي إلي فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة " [34]

كما تستند آلية التأويل عند مالك بن نبي على تطبيق التحليل النّفسي لدراسة النّص القرآني، ويستشهد على ذلك بالذوق الفطري عند العرب والذي يتجلى بشكل واضح في تأثر الوليد بن المغيرة بعد سماعه لآيات من القرآن، وقصة إسلام عمر بن الخطاب متأثرا بآيات سمعها من أخته. [35]

6-منهج بن نبي في تأويل الظاهرة القرآنيّة:

تذهب الكثير من الدراسات المعاصرة إلى أنّ التزام الموضوعية أثناء العملية التأويلية وتحري تحقيقها يبقى هدفا بعيدا في ظلّ حضور ذاتية المؤول وإصداره لأحكام مسبقة ذلك أنّ الموضوعيّة الّتي يمكن الوصول في تأويل النّصوص هي " الموضوعية الثقافيّة المرهونة بالزّمان والمكان لا الموضوعية المطلقة الّتي تثبت أنَّها مجرد وهم من إبداع

أيديولوجيـة الغـرب الاستعماري إنّ هذه الموضوعيّة الثقافيّة تتحقق بتحري القارئ استخدام كلّ طرائق التحليل وأدواته لاكتشاف دلالة النّص " [36]

وعلى الرغم من كفاءة آليات المنهج الذي اختاره مالك بن نبي وقدرته على سبر أغوار النّص إلاّ أنّه لا يمكن أن يلغي قيمة التحليل التراثي للظاهرة القرآنيّة.ويخرق تقاليد القراءة الكلاسيكية. يقرّ مالك بن نبي التأويلات التي سعت إلى الظفر بتحديد مواطن الإعجاز على المستوى اللّغوي والبلاغي وطرائق نظمه، قد بلغت الأهداف التي ترجوها ولكنّها تبقى قاصرة أمام التحديات الإيديولوجية لعصرنا لهذا يجب أن يحتكم التأويل لسلطة العقل، كما أنّ حدود تأويل النّص الديني في التراث الفكري الإسلامي غذته النزاعات الطائفية والتوجهات المذهبيّة وزادت في تباينه مبادئ الفرق الإسلاميّة، ولكن الحقيقة في نظر مالك بن نبي أنّ إثبات ذلك ينطلق في الأساس من الإقرار " بخصوصية الوحي ومضمونه، هما الأمارتان المميزتان المثبتتان لرسالة النبي، هذا إلى أنّها هي السمة المميزة للنبوة، وهي الحقيقة الجوهرية في مذهب التوحيد وبرهانه الواقعي." [37]

وفي هذا السياق آخر، يتأكد لنا أنّ منهج ين نبي يرتكز على تقديم الفكرة مشفوعة في تأويلها بدليل علمي فهو عند حديثه عن حركة النبوة، فيعرض في البداية مبدأ النبوة والتي يراها ظاهرة موضوعيّة مستقلة عن الذات الإنسانيّة الّتي تعبر عنه وتكررها في ظلّ بعض الشروط يبرهن على الوجود العام للظاهرة بطريقة علميّة " [38]

وتأكيدا على انفتاح القراءة التأويلية على التعدد الدلالي للمعنى و فتح مجال الاجتهاد للباحثين في خصوصية النّص القرآني و ظواهره الإعجازيّة ليس بقبول القيّم المعرفية التي يحددها المنطق وتتفق مع العقلانية التفكير فحسب بل لترسيخ أبعاده التاريخية والنفسية وذلك أنّ النّص القرآني محايث للتاريخ فهو " نص مفتوح لا يستطيع أي تأويل أن يغلقه بطريقة نهائية وعلى العكس فإن المدارس الإسلامية هي حركات إيديولوجية تدعم وتشرع إرادات القوة لدى الفئات الاجتماعية المتنافسة على الهيمنة " .[39]

نستنتج أنّ المنهج الّذي اختاره بن نبي يتجاوز المنهج الكلاسيكي في تفسير النّص القرآني وفتح باب التأويل الذي يضع أمام القارئ احتمالات لقراءات متجددة تسعفه على خوض مغامرة لامتناهية للتأويل، كما استعان آلية الموازنة بين مذهبين فلسفيين دار بينهما جدل واسع تضاربت فيه آراء المفكرين والفلاسفة بين مؤيد ومعرض أحدهما مادي والثاني غيبي. عقيدة الحتمية المادية المحضة ومذهب غيبي ميتافيزيقي يسعفنا على تفسير الظواهر حينما تعجز الطبيعة وقوانينها على ذلك لتنتهي به المقارنة إلى إثبات ضعف المنهج الأول واختلاله وقدرة الفكر الديني وحده أن يقول شيئا واضحا بيناً. [40]. ويأتي في فصل لاحق إلى عقد مقارنة العلاقة بين القرآن والكتاب المقدس، ولتوضيح هذه العلاقة يقارن المؤلف قصة يوسف عليه السلام في القرآن والكتاب المقدّس وبعد استخلاص نتائج المقارنة يصل إلى فرضيتين الأولى مفادها وجود تأثير يهودي مسيحي في الوسط الجاهلي أما الفرض الثاني ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم من أنّه تلقى تعليما شخصيا مباشرا عن الكتب السابقة للقرآن، ليخلص عقب تحليل معمق إلى أنه من السذاجة القول أن القرآن استوحى القصة من رواية واحدة أو أكثر من روايات كتابيّة لم يعد لها وجود كما أنه من السذاجة أيضا اعتبار النبي عالم بما في الكتب السابقة يرتبها وينسقها كما وردت في القصة القرآنيّة."[41]

لقد تناول مالك بن نبي عديد الموضوعات محل الخلاف والدراسة– كما سبق وذكرنا– وسنحاول في هذا المبحث الوقوف عند مفهومه لظاهرة الوحي.

7–تأويل مالك بن نبي لظاهرة الوحي

لقيت ظاهرة الوحي القرآني اهتماما كبيرا من المفكرين البحثين في الغرب تزعمها تيار المستشرقين الراغبين في البحث عن خصوصيات التراث الإسلامي متسلحين بنظريات ومناهج التي أفرزها تطور العلوم الرياضية والتجريبية بداية القرن العشرين. ومن المعلوم أن البحث فيها قديم فقد تناولته الدراسات التراثية بالبحث والمدارسة وجعلته من المسائل المتصلة أساسا بالغيبيات، فتوارثت عقول المسلمين فكرة أنّ الإيمان بالوحي يدخل في أسس الإيمان والتوحيد وتفكير في غير هذا فهو ضرب من التطاول على الدين إلاّ أنّ مساءلة الظاهرة والكشف عن حيثياتها في ضوء التطور الحاصل في طرائق البحث العلمي الذي يحتكم العقل تعالت دعوات تقترح قراءات جديدة لفهم النّص القرآني و تأويل مشكله فكان أن قامت بحوث ودراسات تجاوزت القراءة بآليات الكلاسيكية لتأويل النّص القرآني من ذلك ما قدمه محمد أركون و محمد عابد الجابري، ونصر حامد أبو زيد مستفيدين من المنهجية العلمية ونظريات النقد العربي كالبنيوية والتفكيكية والهرمينوطيقا الأسلوبية..

ومالك بن نبي وإن كان أسبقهم زمنيا إلا أنّ رؤيته النقدية تتقارب في طرح بعض القضايا الشائكة محل البحث والمدارسة برؤية جديدة تستعين بالتحليل النفسي والتاريخي في سياقه الاجتماعي،""ومن هنا عمل بن نبي على تقديم رؤيته لظاهرة الوحي ودراسة كيفيتها وخصائصها وهي محاولة نراها تهدف إلى تغير جذري على مستوى الفكر في فهم وإدراك الظاهرة القرآنيّة. وذلك في إطار تفسيره لهيمنة الآخر على الفكر ورغبته في إشاعة الدسائس المشككة في صحة الدين والنّص القرآني ممثلا في الوحي القرآنيّ؛ لأنَّ المفسر من الناحية المنهجيّة، يؤول النّص القرآنيّ ومفاهيمه حسب حاجات الأمّة المعاصرة ".[42]

ينتقد مالك بن نبي التصورات الكلاسيكية لظاهرة الوحي كما أنه يقيم الأفكار التي طرحها السلف عند بحثهم في الإعجاز حينما تمت مقارنة آيات من القرآن الكريم بقصائد من الشّعر الجاهليّ حيث أن مثل هذه المقارنة لا تجدي نفعا ولا تحقق أهدافها كما أنّها لا تناسب أذواقنا. في فهم عبقرية اللّغة العربيّة " لا جدوى من ربط الإعجاز بالدراسة الأسلوبيّة، ذلك أنّ الفكر الأصولي السلفي ركز في بحثه عن أوجه إعجاز النّص القرآني على من الجانب البلاغي حيث بيان الإعجاز في المفردات والنظم جمله والتئام تراكيبه وكانت سببا في ظهور علوم اللغة العربيّة .

يذهب إلى تعريف الوحي بوصفه ظاهرة دينية " المعرفة التلقائيّة والمطلقة لموضوع لا يشغل التفكير، وأيضا غير قابل للتفكير، لكي يكون متفقا مع اعتقاد النبي ومع التعاليم القرآنية.[43] والتي بدورها تحيل إلى الظروف التاريخيّة والأوضاع الثقافية والفكرية المحيطة بظاهرة الوحي وهي قراءة يريدها أن تكون منفتحة على علوم مجاورة فيعمل على الاستفادة من المعارف التي تقدمها التاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع مع مراعاة أن الخطاب القرآني يفهم في السياق وجود الديانات السماوية وهذا ما تتيحه دراسة مقارنة الأديان مع التركيز على اعتماد آليات علميّة .يخاطب فيها مالك بن نبي العقل مستخدما المنطق.

يؤكد مالك أن الوحي من حيث كونه ظاهرة تمتد في حدود الزمن، يتميز بخاصتين ظاهرتين هامتين: تنجيم الوحي. ووحدته الكمية. ويقصد بن نبيّ بتنجيم الوحي نزوله على دفعات وفترات. وهو يقرر بهذا الصدد أن القرآن لو نزل جملة واحدة، لتحول سريعاً إلى كلمة مقدسة خامدة، وإلى فكرة ميتة، وإلى مجرد وثيقة دينية، لا مصدراً يبعث الحياة في حضارة وليدة. وفوق ذلك فهو يرى أنّ الحركة التاريخية والاجتماعية والروحية التي نهض بأعبائها الإسلام، لا سر لها إلا في هذا التنجيم. وأمّا الوحدة الكمية، فتعني أن آياته تنزل لمعالجة موضوع معين ومحدد. يقول في بيان هذا المعنى: " فكل وحي مستقل يضم وحدة جديدة إلى المجموعة القرآنية" [44] يعتقد مالك بن نبي أنّه لا يمكن فهم النّص الدينيّ بعيدا عن ظروفه التاريخية و بمعزل عن واقعه الاجتماعي، فلا بد من وضعه في سياقه التّاريخي فإذا أردنا فهم ظاهرة الوحي فمن الضروري الكشف عن الوضع النفسي كما يدعو إلى إحاطة الظاهرة القرآنيّة وظاهرة الوحي بظروفها التاريخية والمتغيرات التي طرأت على المجتمع الجاهلي مع بداية نزول الوحي ، لهذا فإن بن نبي يجد البحث في ظاهرة الوحي يكتسي قيمة عقلية بوصفه برهانا مباشرا على الظاهرة القرآنية ، وهذه القيمة العقلية مرتبطة بالطريقة التي تنشئ الاقتناع في نفس النبي [45]"

إنّ تناول ظاهرة الوحي وتأويل طرائق حدوثها شكل الفرصة سانحة لانتقاد آراء المستشرقين المشككين في مصدر الوحي وقدرته في إثبات صحة النبوة، لهذا قام بن نبي بمقارنة بين الوحي القرآني المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم وتفاصيله في الكتب السماوية المقدسة، كم أكد أن اقتناع الرسول عليه الصلاة والسلام بالوحي من خلال مقياسين يدعم بهما اقتناعه: مقياس ظاهري للتحقق من وقوع الظاهرة، ومقياس عقلي لمناقشتها وتسويغها. [46]

يتضح لنا مما سبق أن الدراسات الموجهة للنّص القرآني والتي لم تراع التفاصيل التّاريخيّة المزامنة لنزوله، وقرأته ومن ثمة أويلته بمعزل منغلقا عن محيطه تركت فراغا (فجوة) بين النّص وفهم المسلم لها ولعلّ هذا ما يفسر استصعاب القارئ المعاصر المتأمل للنّص القرآني من فهمه وتأويله . ذلك أنّ التأويل هو أصل القراءات ومبررها الأوّل والأخير. لذلك لا يجب النظر إليه باعتباره ترفا فكريا أو مبالغة في توظيف المناهج وأدواتها مما يؤدي إلى تعسف في العملية التأويليّة، إنّما المقاربة التأويلية تحاول لاستعادة المعاني المضمرة والتي ظلّت صعبة التحديد غامضة الدلالة " فالمؤول في أثناء تعامله مع النّص، يتجاوز معناه الظاهر والحرفي، والتعامل مع معانيه الخفية والإضافيّة بوصفها منطلقاً للبحث عن كلّما يستعصي على الإدراك للوصول إلى بنياته العميقة عبر التفقه والتقدير والتدّبر، وتوسلا بما في النّص من سنن وإشارات سياقيّة "[47]

على سبيل التركيب:

في ختام هذه الدراسة نؤكد أن كتاب الظاهرة القرآنية يندرج ضمن مشروع البناء الحضاري الذي تبناه مالك بن نبي حاول إرساء دعائمه في الفكر الإسلامي المعاصر، وقد أثبت مالك بن نبي كفاءة خطته في الرد على آراء المستشرقين ومناصريهم من المفكرين العرب بالحجة والدليل المنطقي مما لا يدع مجالا للشك في قدرة الاجتهاد والخبرة العلمية التي يمتلكها المفكر بن نبي في مجابهة قضايا العصر والسعي لإيجاد حلول للإشكالات الراهنة، فكان حريصا أن يعرض أفكاره دون أن يفرضها على القارئ وإنما يتدرج في تبسيطها وترسيخها في الأذهان بعد تحليل منطقي يقبله العقل

كما نستنتج أن القراءة المعاصرة للظاهرة القرآنية عند مالك بن نبي لم تنكر جهود القدماء في تفسير النّص القرآني وبيان إعجازه غير أنها أرادت التجديد في الآليات وتوسيع دائرة الاهتمام بالعلوم الرياضية و المنطق والمنهج العقلاني في معالجة تلك الظواهر وكانت المقاربة التأويلية بمثابة المطية لقراءة النّص القرآني وتفسير المشكل منه ووضع القضايا الإشكالية المتصلة به على طاولة البحث العلميّ إلا أن غياب المنظومة الاصطلاحية الضرورية في أي عملية تحليلية تأويلية والاعتماد على التحليل النفسي تارة والتاريخي تارة أخرى لم يذهب بمقاربة الظاهرة القرآنية إلى حدود سبر أغوارها العميقة ومع ذلك فإن بساطة أسلوب بن نبيّ ووضوح أفكاره سهل على القارئ التجاوب مع الآراء المطروحة وحقق له فرصة التأمل الواعي للمعاني في ظل التعدد الدلالي. وهذا ما يؤسس لقراءات تأويلية جديدة تراعي خصوصية قداسة النّص القرآني وتلبي تطلعات القارئ وتجيب عن تساؤلاته.

هوامش البحث وإحالاته:

1- ينظر سعيد توفيق، في ماهية اللغة وفلسفة التأويل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2002، ص:84

2- ينظر ابن منظور: لسان العرب دار الصادر، بيروت، لبنان، ط1997،1، مج11، ص:33. ؛

3- ينظر محمد مفتاح: التلقي والتأويل، مقاربة نسقية، المركز الثقافي العربيّ، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1994، ص: 224

4- أبو هلال العسكري: الفروق في اللّغة، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط5، 1983، ص49.

5-جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافيّة، بيروت، 1973، مج2، ص:174.

6- نصر الله أبو زيد: مفهوم النّص، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1990، ص:230.

7- عبد الملك مرتاض:التأويليّة بين المقدّس والمدنّس، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج29، ع1، 2000، ص264

8- جورج هايدغر: الأنطولوجيا ، هرمينوطيقا الواقعانية، تر عمارة الناصر، منشورات الجمل، ط1، 2015، ص44.

9- جورج هايدغر: الحقيقة والمنهج، الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفيّة، تر حسن ناظم ود، علي حاكم صالح، دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع،المغرب، 2007، ص16-17.

10- بول ريكور: نظرية التأويل، الخطاب وفائض المعنى، تر سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 2006، ص83.

11- نصر الله أبو زيد: النّص، ص:220.

12- فريد الزاهي: النّص والجسد والتأويل، ، إفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2003 ، ص:79-80

13- بول ريكور نظرية التأويل ،الخطاب وفائض المعنى، ص 120.

14- فريد الزاهي: النّص والجسد والتأويل،ص:77.

15- ينظر بول ريكور: المرجع نفسه، ص97

16- فريد الزاهي: النّص والجسد والتأويل، مرجع سابق، ص: 81.
17 محمد أركون: القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ص:27.
18- محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني، كيف نفهم الإسلام اليوم"، تر: هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت لبنان، ط1، 1991، ص191.
19- نصر حامد أبو زيد : النّص والسلطة والحقيقة إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط5، 2006، ص 149.
20- ينظر فريد الزاهي: المرجع السابق، ص: 87-88.
21- مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، دار الفكر، دمشق سورية، ط4، 1987، ص: 18.
22- المرجع نفسه، ص:54.
23- المرجع نفسه ، ص:57.
24-مالك بن نبي: قضايا كبرى، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط9، 1991، ص: 191.
25- ينظر مالك بن نبيّ: الظاهرة القرآنيّة، ص 53.
26- شريف طوطاو: هرمينيوطيقا النّص القرآني من منظور اليسار الإسلامي، مؤسسة مؤمنون بلا حدود ،ص4
27- بوزيد بومدين: الفهم والنّص ، دراسة في المنهج التأويلي عند شلير ماخر وديلتاي، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف . الجزائر، ط 1، 2008، ص:31
28- عبد الله بريمي: السيرورة التأويلية في هرمينوسيا هانس جورج غادامير وبول ريكور، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، 2010، ص:27
29- ينظر مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، المرجع السابق، ص 190-191.
30- فريد الزاهي: النّص والجسد والتأويل، ص99-100.
31-عبد الله بريمي: سيرورة التأويل، ص:78-79.
32- القيام عمر حسن : أدبيّة النّص القرآنيّ ، بحث في نظرية التفسير، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، ط1، 2011، ص152.
33- ينظر مالك بن نبيّ : الظاهرة القرآنية، ص59.
34- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها
35- ينظر المرجع نفسه ، ص: 62.
36- ضياء الدين أحمد: القرآن من النّص إلى الخطاب، مجلة دراسات وأبحاث، ع 27، 2017، ص:10.
37- مالك بن نبي الظاهرة القرآنية، مرحع سابق ص:86.
38- مالك بن نبي: الظاهرة القرآنيّة ص:87.
39- رون هاليبر، "العقل الإسلامي أمام تراث عصر الأنوار في الغرب، الجهود الفلسفية عند محمد أركون"، ترجمة جمال شحيد، دار الأهالي، سوريا، دمشق، ط1، 2002، ص:42

40- مالك بن نبي الظاهرة القرآنية ، ص:81

41- المرجع نفسه، ص 265-266 .

42- أحميدة النفير: الإنسان والقرآن لوجها لوجه التفاسير القرآنيّة المعاصرة قراءة في المنهج، دار الفكر، دمشق، ط1، 2000، ص107.

43- مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص144.

44-ينظر المرجع السابق مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص 177.

45- مالك بن نبيّ المرجع نفسه، ص148

46- مالك بن نبيّ المرجع نفسه، ص149.

47-عبد الله بريمي: السيرورة التأويلية في هرمينوسيا هانس جورج غادامير وبول ريكور، ص:25.

قائمة المراجع

1) ابن منظور: لسان العرب دار الصادر، بيروت، لبنان، ط1997،1، مج11.

2) أبو هلال العسكري: الفروق في اللّغة، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط5، 1983.

3) أحميدة النفير: الإنسان والقرآن لوجها لوجه التفاسير القرآنيّة المعاصرة قراءة في المنهج، دار الفكر، دمشق، ط1، 2000

4) بوزيد بومدين: الفهم والنّص ، دراسة في المنهج التأويلي عند شلير ماخر الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف . الجزائر، ط 1، 2008

5) بول ريكور نظرية التأويل الخطاب وفائض المعنى، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، المغرب، ط2، 2006.

6) جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافيّة، بيروت، 1973، مج2

7) جورج هايدغر: الأنطولوجيا ، هرمينوطيقا الواقعانية، تر عمارة الناصر، منشورات الجمل، ط1، 2015.

8) جورج هايدغر: الحقيقة والمنهج، الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفيّة، تر حسن ناظم ود، علي حاكم صالح، دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع،المغرب، 2007

9) رون هاليبر، "العقل الإسلامي أمام تراث عصر الأنوار في الغرب، الجهود الفلسفية عند محمد أركون"، ترجمة جمال شحيد، دار الأهالي، سوريا، دمشق، ط1، 2002.

10) سعيد توفيق، في ماهية اللغة وفلسفة التأويل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2002.

11) -شريف طوطاو: هرمينيوطيقا النّص القرآني من منظور اليسار الإسلامي، مؤسسة مؤمنون بلا حدودضياء الدين أحمد: القرآن من النّص إلى الخطاب، مجلة دراسات وأبحاث، ع 27، 2017.

12) عبد الله بريمي: السيرورة التأويلية في هرمينوسيا هانس جورج غادامير وبول ريكور، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، 2010

13) عبد الملك مرتاض:التأويليّة بين المقدّس والمدنّس، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج29، ع1، 2000، ص264

14) فريد الزاهي: النّص والجسد والتأويل، إفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2003 .

15) محمد أركون: قضايا في نقد العقل الديني، كيف نفهم الإسلام اليوم"، تر: هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت لبنان، ط1، 1991.

16) مالك بن نبي: قضايا كبرى، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط9، 1991.

17) القيام عمر حسن: أدبيّة النّص القرآنيّ، بحث في نظرية التفسير، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، ط1، 2011.

18) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، دار الفكر، دمشق سورية، ط4، 1987.

19) محمد أركون: القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني.

20) محمد مفتاح: التلقي والتأويل، مقاربة نسقية، المركز الثقافي العربيّ، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1994.

21) نصر الله أبو زيد: النّص والسلطة والحقيقة إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، لبنان، ط5، 2006.

22) نصر الله أبو زيد: مفهوم النّص، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1990.